

# أُمُّ الْوَاحِدِ الشُّكْلَى

## وصف رزيتها في أربع قصائد قديمة

• محمد السليمان السديس •

وَجَدِي بِهَا وَجُدٌ بِقَلَابٍ بِوَاحِدِهَا      وَلَيْسَ يَفْقَهُ مُجِبُّ فَوْقَ مَا أُجِدُّ

فَمَا وَجُدْتُ وَجَدِي بِهَا أُمُّ وَاحِدٍ      وَلَا وَجُدُّ حَتَّى بَاتَنَ أُمُّ كِلَابٍ

هدية بن عثرم

\* \* \* \* \*

تمتد ذراع الرُدى الطولى فخرس برائن كلها الحادة في ضحيتها، وتخطفها إلى  
حيث ألقت رحلها أُمُّ قشعم، عطفاً لا إفلات منه، غير حافظة بما يُلدِّد ما تصنع  
من أَسَى يَهْزُ الوُجْدَان، وَيَهْزُ الكَيَان، وكمد يُوَزُّ الروح، ويضرم الضرام بين الجوارح.



هذه الذراع المأمورة تعمل ما تعمل وتغضي مخلفاً في أنفُس من لبثوا بعد مَنْ خطفته  
شجناً ربما يُضَيِّعُ العيون والشعور، لأنَّ العاطفة الجائشة غب الرحيل النهائي لتعزيز عزٍّ أن  
تدأ فوراً ومزوّقة، واحداً واضطراباً، وتنفذاً إلى أقاصى الحوار النفس والجسد.

فإن كان ذلك العزيز القعيد من بني الفاقد تضاعفت قوة (الشحنة العاطفية) وفورتها  
وجيشانها. فإن كان ذلك الأمين واحد أبويه الذي كان وحده مؤنس وحدتهما، ومشاركهما  
في حلو العيش ومره، ثم أُلْقِيَ مجلته، بين غمضة عين وانتيابها، وقد صغر صفوراً موجلاً  
من ألفا الأنس بِمَسِّهِ وتَحَسُّبِهِ والتربيت عليه، أو الاعتماد عليه بعد الله عزَّ وعلا في جليل  
الشان وصغيره، فإنيهما، لا غرو، يعانيان معاناة عاطفية عارمة لا تدانها معاناة لفقد هذا  
الكائن الحي الفريد الذي تجسدت فيه المعاني المتنوعة للحياة التامة .. الكائن الحي الفريد  
الذي انصبت فيه وعليه وعيره أحاسيس الحب الأبوي الدافئ الصافي الخلو من نوازع  
الاستفاد كافة.

الكائن الحي القريد الذي كانت تشيع إليه من كيان أبويه البهجة الدفين، والقناعة الكامنة، إشعاعاً يوتد إليهما - وإن لم ير رأي العين - رداءً من الرضا والطمأنينة والسكينة.

ويُعظم هول الفقد حين يكون المفقّد أحد الأيوين دون أن يكون الآخر إلى جانبه يشدّ أزره، ويقوّي عضده، ويواسيه أو يُسليه، ولا سيما حين تكون الأم، ومن كالأُم ؟، هي التي قدّر عليها أن تتجرّع غصصَ فقدٍ وحيدها. وإن كانت العبارة المؤلفة من لَفْظَات ثلاثٍ وحسب : (أُمٌ فَقَدَتْ ابْنَهَا) تنوء بدلالاتها ذات التأثير الفائق القوة، تلك الدلالة التي ربما عني كُتِبَ وشاعرونها كثيرون حتى عن الدنو من مَسْهَا الصاعق، إلا أن ثلاثة شعراء فحول قدماء تمثلوا ذلك الموقف المأساوي المشحون بالإحساس والانفعال المتدفق، الذي اتخذهُ الأُم الكَوَاءَ، والأسَى اللَسَاعَ، وعاءً له كان أضيق من أن يُحكّم التحكّم فيهم، أو كَتَحَ جِماجمهم، فاقدر أولئك الشعراء الثلاثة على (الصعود) إلى (الحدث) ومواكبة هَوْلِهِ بما أوتوه من محبةٍ ثرية، وجسٍّ رقيق، ورؤية شاعرة تغدّ عل السُدفِ والأستار، لتكشف عما يعتلج في طوايا وجدان الإنسان من وَجْدٍ ربما ظلّ حتى (الشاعر) به عاجزاً عجزاً شديداً عن تجلية كل ما يُلْقُهُ أو بعضه من استبصار واستغراق، أو حتى أحياناً عن مجرد استخراجه من ممكنه ليبدو لكل راء.

كان اثنان من الثلاثة هَذَيْنِ أحدهما عبد الله بن سَلَمٍ أو سَلَمَةُ السهمي الشهير بأبي صخر الهذلي ذو الصيت الذائع، واسم الآخر ساعدة بن جُوَيْهٍ، وهو، وإن كان دون صاحبه اشتهاً، فما هو بدونه فحولٌ وجزالة كلمة. أما الثالث فهو حُميد بن ثور الهلالي (\*). وقد عاشوا جميعاً في عصرين لا يفصلهما فاصل زمنيّ طويل، إذ كان ساعدة وحُميد مخضرمين عاشا في الجاهلية وأدركا الإسلام وأسلما، وعاش أبو صخر في عصر بني أمية.

عالج أبو صخر الحدث المفجع بقصيدة بتيمة لا بُدَّ من عدد بيوتها على العشرين إلا قليلاً، وصوَّره ساعدة بقصيدتين لا تختلفان من حيث عدَدُ أبياتهما كثيراً عن قصيدة أبي صخر، أما حميد فعالجه بقصيدة ذات ٢٧ بيتاً.

توافق الثلاثة في تصوير هَوْلِ الجَيْشَانِ العاطفي المضطرب في جَوْشِ الأُم وروحها، بل في كيانها بأسره، عند صدمتها الأولى، إذ استبانت أن وليدَها، الذي طاف يبغي لُجُوهَ من هلالٍ، قد هلك. وقد أفلحوا إفلاحاً كافياً في بناء مشاهد المسرحية المأساوية، وإغاثتها بالتفاصيل والخزائيات ذات الإبهامات المُعْترِية، التي تنظم فسيهم في خلق العمل الإبداعي الثفن.

هذا التوافق، الذي كاد يكون تاماً، ليس يوسع المرء تلقائياً إلا ترجيح أن أحد الشعراء قد حاكى صاحبيه، أو أن اثنين منهم حاكياً ثالثهما على رغم تفرع سبلهم، ففي حين سار أبو صخر في تصوير فاجعة الأم دون أن (يستثمر) إصغاء (المتلقي) إليه بمخاطبة غير متوقعة، أو أن يسعى تعاطفاً منه معه، وخذلاً عليه، إلى إعادة خذته الدرامي في حاقريته إعادة توشك أن ثقله قلباً، صنع ساعدة بن جؤبة هذا الصنيع في كلتا قصيدتيه فجعل البشر يزغ، آخر الأمر، ويؤم الأم، وهي في أوج اضطرابها مع الفجيعة، ليثبثها أن ابنها ممتلئ حياة، وأنه في طريقه إليها طائراً كقناب، أو - وهذا أدى إلى القصد - عادياً كظليم أو غيم بري. كما صنعه حميد أيضاً فجعل الابن نفسه يهل على أمه أصبح ما يكون وهي في دوامة لوعتها.

ومع استيفاء الحدث والحديث، بهذه الإشارة المقصية إلى منح كل من الشعراء الثلاثة في تناول الموضوع هذا، فما قضى هنالك لدى كل منهم الكثير الخفري بالنظر والتأمل. ولا ضير في أن نبدأ الحديث عن معاني قصيدة أبي صخر، وإن كان متأخراً عن كل من حميد وساعدة كما ذكرنا، ويحتمل تأثره بهما.

استهل أبو صخر القول بالحديث عن امرأة كان يبوأها، تدعى ليلى، ما كان يرى لها مثيلاً في نساء الأرض جميعهن، فقدأها بأهله، وأقسم بالله جهده يمينه أنه ما جائف الصديق، ولا اجتنب الحق، حيث أكد أنها حلت في فؤاده محلاً مكيناً لا ترميه، على قنوطه من نيل وصلها ما شرب النخل من حويضاته المستديرة حول أصوله. وفي خاتمة هذا الحديث العابر المباشر عن العلاقة بين الشاعر وحييته خلص إلى التأكيد بأن أخف ما ليكنه جوائحه لها من حب يغدل ما يجيش في صدر أم حين يهضك مسامحتها تياً لفاء واحدها مصترعه.

وأغلب الظن أن أبا صخر ما كان في الحقيقة عاقداً للتية، هذه المرة، على وصف ما قد يكون عاناه أو لم يعانیه جذاء ليلى، وإلا لما اكتفى من ذلك بهذا المرور الذي هو أسرع من مرور الكرام، والأحرى أنه قد وضع نصب عينيه، حتى قبل أن يلقظ لفظاً واحداً عن علاقته الغرامية، الموضوع الذي كانت قد التأمث وحداته في ذهنه باكراً، فاتخذ من وصف صلته بليلي وسيلة قفز منها قفزاً إلى غايته، وهي تصوير العاطفة المشبوبة بين جوائح أم متعلقة بأبن ليس لها في دنياها سواه.. تلك العاطفة التي أخرجتها المأساة التي حطت على هام الأم المسببة المسكنة. وهو لم يتبع تماماً ستن من كان قبله، فلم يتبع أسلوب القصيدة القديمة التقليدي بإطالة الحديث عن الحبيبة فيما سمي بالمقدمة الغزلية، فلم يك يطبق الصبر عن (الغرض) الذي

عقد العزم على تناوله. وهو في ذلك كشعره أقدمين آخرين اتخذوا من وصف الناقة على سبيل المثال، في كثير من الأحيان، جسراً قصيراً يقطعونه أثناء عملية الخاض الشعري، بلا أدنى ريب، إلى بنيتهم الحقيقية فيسرحون الفكرة المقتولة من كثرة ما أعيد فيها من قول، إلى موضوع لا يبلغ في شدة ألقه مبلغ وصف الناقة الذي لم يكده يغادر فيه الشعراء من متردٍم، وكما يصنع الشاعر الذي امتزج بدمائه حُب الطبيعة، والتوجه إليها، بل والانغماس فيها، وتأمل مظاهرها، ثم الحديث عنها حديثاً صادقاً عفويّاً مناسباً من الخاطر انسياب الماء الرقاق المتدفق عبر الرياض .. كما يصنع هذا الشاعر حين يُلقي نفسه مسوقاً بعلّة أو بأخرى، دون أدنى ميل يلقاه في نفسه، إلى اختصار الذهن وإكراه اللسان، لاستخراج المعاني استخراجاً عتيقاً، لتصبّ إشاء مصنوعاً لا يجاوز الحنجرة، على محمود أنأى ما يكون عن استحقاقه.

فيدي الشاعر المطاوعة ويسلس، مكزهاً لا بطلاً، القياد، لكنه، وهو الشاعر الذي لا يبغي على القذى من الضيم، يبعد إلى الكيد للممدوح التقليل، فيمضي سارحاً مارحاً في كلمته الطويلة التي يفترض أنها مدبح للخليفة مطلقاً النفس على سجيته، وفي الميادين التي تردها، لتحدث عن أغراضها الأثيرة لديها، الدانية إليها، حديث المُعْتَنِي المُفَصِّل، الذي يدع العنان لشاعريته تجوب شعاب الفنون الشعرية المحبة إليه، وتجوّس خلال مضامينها، ثم في آخر مطافه يُعْوج إلى المدبح فيعصر اعتصاراً من بين فكاه ألقاطاً يلوّكها متراحياً، ليس فيها مما يمتدح به خلا القليل، بل ربما لا يشم منها سوى ريح المدبح، ذاراً بذلك الرماد في الأعين، ومموهاً على الممدوح الذي قد لا تنظلي عليه المكيدة<sup>(١)</sup>، ومموهاً له بأن هـ الشعر الكثير مدبح له، كأن يقول: رب سائل يسأل لِمَ لَمْ أقصّد من يحقق رغبات المجتهدين. لا يعلم أن الداء هو الذي حال بيني وبين ذلك، ولولاه لكنت في طريقني إليه<sup>(٢)</sup>.

وقل مثل ذلك عن الهجاء حين لا يأتي وليد إثارة صادقة.

عندي أن ذلك هو سبب تعجّل أبي صخر في ذكره لبّلاء وذكره لها، ثم زنيته، في ذلك، في تصوير مأساة الشيخة، وكأنه يوميء إلى أن هذا ليس أوان الحب والفرح بل أوان الحسرة والترح، وأن فداحة البلاء أعجمت لسانه عن التغزل، وصرفته عن القول اللاهي إلى الحديث المهموم، فمضى بتعت المشهد المختدم بالألم:

شيخة متوغلة في الشيخوخة، لم يشتغل منها الرأس وحده شيئاً، بل نبت لها شعر على عارضتها، وشاب أيضاً، وقد لاكتها الدنيا، وكثر أزواجها الذين تعاقبوا عليها واحداً إثر واحد،

إذا لقي أحدهم حنقه تلاه آخر، مما زاد في بلاها والندراس فتاتها وشبابها !

أناخ الدهر بكلكله على نبيها، فلم يبق منهم لها إلا ابن واحد. ابن حملته بأخرقة من الغمر، فلم نكد تصدق أنها حملت، فهي عجوز وبعلها شيخ، فلما وضعته أضحي، في عينها، هو في كَيْفَةِ والدنيا بأسرها في كَيْفَةِ، فكانت لا تفتر عن ضمه واحتضانه وإصايقه بكيدها التواقة إلى البنين، التي ذاق طعم الفكل، وكَوَّاهَا خُرَّ ناره.

أغدقت هذه العجوز على صبيها الوحيد الذي كان يعدل لديها جوهريتها كل ما أوتيت من حب ورأفة وحنان، وبذلت غاية جهدها لتثقيته بنسقة الرجال النامي المروعة، الدانين من الكمال البشري أقصى دلو ممكن، فكان لها ما ابتغت إذ فتوح صبرها غير المثلول، وجهادها غير الكلول، بالإحمار السائر، فسب ابنها عن الطوق، وبلغ مبلغ الفتيان الأشداء، وبدا كالقناة الصلبة طولاً وقناةً ونمأة، ولاحت عليه دلائل النبل، وكرم السجاء، والجزالة، وسحات رجاحة العقل حتى بات ذوو الأستان يقصدونه ويحيونه، على فتوة سنه، تحية الكهل الذي بلغ الأشد، لما تبيّنوه فيه من رزانة وعبد نظم، وما توسمونه فيه من جرأة فذة وجود عزيز :

بأغلي من أنسى، على نأبه، شكلا  
وأغسم بالله الذي اهتر غرضه  
بأن ليلتي في فزادي غلاقة  
ومن لا أرى في العالمين له بطلا  
على فوق سبع لا أعلمه بطلا  
على اليأس منها، ما سقى الشرب الثغلا<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

لما وجد ضطاء الغواض ألفت  
وقد لبست حتى تولى شابهها  
ولم يبق من أبنائها غير واحد  
تكف عليه الدرع ثم تضمه  
فشب لها مثل الرديسي ماجد  
تري الشيب بالأصايل يمسون نخوة  
يحيون نهلولاً جزيلاً عطاوة  
نبيها فلم يبق الزمان لها أهلا<sup>(١)</sup>  
إذا مات يغفل بذلك بقده بغلا  
وما إن أقرت قبل مولده الخملا  
إلى كبد قد جربت قبله الكلا  
كريم تراه في عشيقته جزلا  
يحيونه كهلًا وإن لم يكن كهلًا  
جميع السلاح لا يجبان ولا غلا<sup>(٥)</sup>

جاء هذا الفتى يوماً أمته مستأذناً في الخروج ليغزو مع صاحب له، وكانوا قتياناً كراماً،

خسني صيب، غر ضعاف أو صغر الأيدي من السلاح، قلت - لقرط حيا لها، وضئها به، وفريقها عليه - بضعة أشهر دون أن تحمرا على الإذن له، لكنها لما رأت رفاقه، وثبتت أي نوع من الرجال هم لم تستهها سوى الإذعان لما طلب، داعية الله أن يجمع شملها به عائدا ظافرا غائما.

امتطى الفتي فرسا صهبا الصهوة، طويلة العنق (قوداء)، ثقلك لجماها، لما يجيش فيها من فورة قوة ونشاط، كما امتطى صحابه جيادا ضامرات طولالا كالرماح. وتوجهوا لتقاء أرض العدو التي كانت على مسيرة شهرين للخيل العاديات ضبحا.

والتفوا بأعدائهم، وساقوهم كؤوس الردى، وكانت السهام المرسله من كل صف نحو الآخر، مقبلة نحو ذا ومندرة نحو ذلك، كأنها التحل سرعة وصوتا. في هذا الموقف العصيب الذي أشرعت فيه الشيا مناهلها، كان الفتي يصيح بعصيته حاثا لهم على الكر وضرب الأعداء بلا هوادة، وداعيا إليهم إلى نبد التلاوم. وكان الأبطال يتحامون لقاءه لما رأوه من حسن بلائه، فقد كان يفتك بالرجال والفرسان والخيل بضرب يطيح بخوذات المقاتلين من على هاماتهم فتساقط ولها أصوات مسموعة:

أق أمة قد واعد الغزو قبّة	كراماً نناهم لا ضعافاً ولا غزلاً
فشكت عليه نصف عام، وعنده	من القود صهباء القرا ثقلك الثكلا (٦)
فلما رأت أصحابه أذنت له	وقالت: لعل الله أن يجمع الشمل
فسار إلى الأعداء سئين ليلة	على صغر مثل القنا مطلت مطلا (٧)
فلما رأوا حوض الميثة حلهم	وقال: اضربوا لا استمعن لكم غزلاً
لخال اختلاف التل بين صفوفهم	إذا أذبرت أو أقبلت بينهم نخلا
تري ابن الفجوز قد تحاموا مقامة	إذا شد فيهم عقر الخيل والرّجلا
بضرب يطاطي البيض من فوق رؤسهم	إذا أكرهت فيهم سمعت لها فصلا

لكنه، ليعثور بجده، فيض له من بين فرسان غدوه فارس مقدّم، حثكه حوض المعامع، ولجذله مذؤزة شؤون الكر والفر وتصريفها، لم يكن ممن يخل الخيل تحت الصائد ثقلة ذؤته بطباعها، فطلا بتعاوران الطعنات، وكل منهما يذل جهده لتسديد نصاله الطوال العراض القاطعة صوب بذه، وقد نال كل منهما بعتته من صرع صاحبه، فخرّا كما يخر جذا شجري ذؤم، قطعا، واتصاع عنهما جوادهما، لبقعا تحت سوق الخيل.

قام الفتيان بمواراة صاحبيهم الثرى، ونسوية تَرْبِ جَدُّه، ثم غدوا إلى ديارهم ومعهم لِبَاسُهُ  
 وأَشْقَرُ جَنْذِيذٌ يَجُرُّ عِثَالَهُ إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرَكْ لَهُ الْمَوْتَ سَاقِيَا

استشرفت الأم نحو المَعْصِيَةِ العائدة، وأرسلت نظراتها مشْتَةً لِقَاءَهُمْ وتلقاء جبايهم .. لكنْ  
 قلبها اتّوى البُتُوَاءَ الثَّعْبَانَ، وهي ترى كلاً منهم يقصد بيت أفلهِ، ولا ترى لشرّة فؤادها من  
 أثر سوى درجيه وسلاجيه وقميصيه الذي تشرب الدَّم. فهَبَّتْ إليهم ناديةً نالحةً، فهذا أوان  
 التَّوْحِ، وطففت تكي جَدُّها العائر، وتُكَلِّهْهَا، وَرَجَّلَهَا الْفَرْدَ الذي أَقْل، وليست طويلاً تُسَكِب  
 الدمع الثَّرَّ عليه كل ليلة، ولما استفاقت من بأسها بعض الاستفاقة، وخَفَّتْ حَذَّةٌ وقع الصدمة  
 شيئاً عليها، أَلَفَتْ نفسها قد تحيرت إثرها صحتها الجسمية أو العقلية !! :

أَتَيْخَ لَهُ مِنْهُمْ كَبْشٌ مَجْرَبٌ مَعَاوِزُهُ طَغْشاً يَفْرُجُ مَؤَزَهُ  
 مَعَابِلُ صَبَابٍ، وَقَدْ مَطَّلَتْ مَطْلًا (٨)  
 كَمَا حَرَّ جَدُّهَا دَوْمَةً قَطَلَتْ قَطْلًا (٩)  
 وَصِهْيَاءٌ قَدْ ضَمَّ السَّفَارُ لَهَا صُقْلًا (١٠)  
 وَلَمْ تَرَ إِلَّا السِّيفَ وَالذَّرْعَ وَالْبَلَاءَ (١١)  
 فَقَامَتْ إِلَيْهِمْ تَجْمَعُ الْكُكُلَ وَالرَّجُلَا (١٢)  
 بَدَمَعٍ تَرَاهُ لَا قَلْبًا وَلَا ضَحْلًا  
 لَهَا مَقْعًا، أَوْ كَانَ - يَا وَجْهًا - خَيْلًا !! (١٣)

وبعد رحلة الشاعر القصصية غير القصيرة أُلْقِيَ إلينا بكلمة حول حييته التي انفلت عن  
 شأنها سريعاً في أول كلمته، ساعياً دون طائل، إلى حَمَلْنَا على تصديقه بأنه كان يصف تجربة  
 وجدانية أصيلة، اختلج خلالها وَجْدُهُ بليلى في أعماقه :

فَأَيْمُرُ مَا أَبْهَدِي بِإِلْمِي كَوَجْدِهَا سَوَى أَتْنِي أَبْهَدِي مَا حُلُقُفًا جَزَلًا (١٤)  
 وباعتصام أبي صخر لحريره البشيس، نلثفت إلى ابن عمّه الهذلي الآخر الذي سبقه إلى حرث  
 أرض الموضوع البور، واتخذ موضوعاً لقصيدتين من شعره : ساعداً بِنِ جَوْوَةٍ.

ونبدأ بالقصيدة الأولى وهي الطولى منها، فجدها ذات مقدمةً طلبية وغزلية مقتضبة لا  
 تتجاوز آياتنا ثلاثة، أي كمقدمة أبي صخر الغزلية، ولا تحوي إلا اليسير من تفايد وصف  
 المزارل عند قدماء شعراء العرب، ساءل فيها نفسه آثارها منزل حيته (قَبْلَةً) .. هذا المنزل

المختلف العمر، فبعضه قديم وبعض مستحدث، وهو منزل دارس ما بقي فيه سوى شيء من رماد لئده القطر فكانه حمامات لاجلثات بالأرض. ثم أكد أنه، إن كانت قيلة قد نأت وعاد لقاءها غصياً، فإن حبه لها قد أضناه، لولا تأسيه وتصبره :

أهاجك مغلَى دمنة وزُوم      لقيلة منها حادث وقديم  
عفا غير إزث من رماد كانه      حمام بالباد القطار جُوم  
فإن تلك قد شطت ولاث مزارها      فإني بها، إلا الغراء، سقيم

ثم أشرع بنفض الشاعر يده، بل بصرفه لسانه، عن قيلة وعن منزلها وعما يصلة بها من علائق أو ما يفصله عنها من أسباب، اللهم إلا بالعبارة (المفتاح) ليرتاج القول الناعت للشيخة، وما ألتَم بها من بأس : «ما وَجَدْتُ وَجِدِي بها أُم وَاجِدِهِ». وعدوله إلى الموضوع الأساسي : أُم لابن واحد بلغت الكبر، وشابت ظفاتها، وأمت عقيماً، قليلة الرجاء في إنجاب سواه.

رزقت هذه الأم ابناً الوحيد هذا بعد أن (أَوْدَى الشَّيْبُ فَمَالَهُ مُتَقَفِّرٌ)، فوهنت منها العظام، ووهت القوى، وجتج نجم العمر للأفول، بعد أن ظلت ثَقُلْ مرة بعد أخرى، في مسيرة حياتها بين حالات الزواج والأيمية، فكل رجل تزوجه سرعان ما يرسل زمامها، مما ضاعف افتقارها إلى ابنها، وعظم عليها مصيبة فقده.

ومما كان أتم قرار عينها بولدها كونه ذا قوام مُستَوٍ، وثنية صحيحة، وجسم زاده الله بسطة، وأنه أعانها على من يَقلَّها ويؤذيها، وكان مقدماً مغواراً غاماً :

وما وجدت وَجِدِي بها أُم واحد      على القاي شَمطاء القذال غقيم  
رائد على فزت الشباب وأنها      تزاجع بغلاً مرة وتليهم  
فشب لها مثل النان مبرأ      أشم طوال الساعدين جيم<sup>(١٥)</sup>  
والذمها من معشر يعضونها      نوافل يأتيا به وغُوم

مضى فتاها مع ثلاثة نفر من أخلائه، وكانوا شغناً غُراً من أثر سفرهم في غارهم طلباً للقم، واعتل قارة شماء سامقة، تنتشر عليها النعام - وهي عرائش يستظل بها الرينة الذي يرقب من مكان عال الأعداء لينذر قومه، كما يستظل بها القانص - هذه النعام بعضها على حال جيد، وقد تحطم بعضها. وكان يرمع الرقب من على هذه القارة، ليتحين نَهْرة للإغارة، فما شعر إلا وقد أهدقت به عصبة من الرجال ذات عدد، فحمل عليهم يهدي صارم لا



ثُرْدُ ضربته، بل يخطم العظام حطماً، وكأن الوشي على متة آثار ديب شيثان، ويقوس لها صوت ربح عاصف تطرح ثياب الماشين، لشدةها، كل مطرح :

فأصبح يوماً في ثلاثة قبة من الثغ، كل حلة وتديم  
وقدم في غطاء في شرفاتها تغالب منها قائم وهزيم<sup>(١٦)</sup>

....

فلم تشبه حتى أحاط بظهوره جاب ويزب كالجراد يسوم<sup>(١٧)</sup>  
فوزك لباً لا يثلم نضلة إذا صاب أوساط العظام صميم<sup>(١٨)</sup>  
تري أثره في صفحيه كأنه مدارج شيثان لهن هيم<sup>(١٩)</sup>  
وصغراء من تبع كأن عداها مزرعة تلقى الثياب خطوم<sup>(٢٠)</sup>

وقد تركته سهامه العريضة النصال، الشديدة الجدة، التي كأنها، حين تخرج من كتائبها، نار تنوهج، في حصن حصين من شرهم، كما شغلهم عن نفسه بأن أصاب رجلين منهم، فنفقت منهما الدماء، فتوجهوا إليهما يحملونهما، ويضمضون جراحهما.

وانفصل أصحابه اللذان انطلقا معه في الغارة، لما استباشا من إمكان غوثه وفكه من أيدي عدوه الحافين من حوله، الذين كادوا يفترسونه اقتراساً، واضحين بأن سلما يجلبديهما، ومن الغنيمة بالإياب، بعد أن كاد قلباهما يزيغان .. انفلا لا يلويان على شيء، ولا يألوان جهدا في العدو، ولما وردا أرضهما وديارهما، قصدا أنه التي كان فؤادهما فارغاً، وأبلغاهما، ودموعهما جارية، بأن عهدهما به وقد حاصره خصمه وحاقوا به، ولا بحالة أنهم قد أصابوا منه مقتلاً، فليس له من محرم، ولا لئسجاء من وجه.

استخف الأم مستخف اللوعة المباغتة فانبعث تدور، كمنخراق بأيدي لاعين، يمينا وذات الشمال، لا يستقر لقدمها قرار، تسكب دمعاً ساجحاً لا ينقطع، وتوجه إليهم بين لحظة وأخرى، تسألهم مرة تلو مرة، عن رفيقهم الذي لم يعد معهم، فلا تلقى منهم سوى تأكيد لبائهم الكرم، فتعبد، من فرط التبايعها، إلى سير من جلد كانت تتعله فتشرع تضرب به صدرها ونحرها ضرباً لاسعاً مبرحاً، يُحرق الجلد، ويتبض الأحياء :

وأخصته فخر الطببات كأنها إذا لم يفيها الجفير جعيم  
فالهاشم يثني منهم كلاهما به قارث من التجيع ذميم

وجاء خيلافه إليها كالحما  
فقالوا : عهدنا القوم قد حصروا به  
فقامت بسبب تلغج الجلد وقفة  
إذا نزلت من غيرة يمتنهم  
يفيض دموعاً غزيرهن سجود  
فلا ريب أن قد كان ثم لحيم  
يفيض أحشاء الفؤاد إليهم  
ثنايلهم عن جها وثلوسم<sup>(٢١)</sup>

وبينا كانت في أوج اصطدامها بالبأساء، وأقصى لحظات الضراء، رافعة عقربها تعول وتولول  
صائحة نائحة على أعز مفقود، جاهدة جهدها كله في البكاء عليه، والتحسر لفقده، والخض  
على الانتقام له، إذ هتف هاتف من القوم مبشراً بمجيء الابن حياً معاف .

فلما ذهب عنها الروح وجاءتها البشرية هبت تزعج الناس بذراعيها الملتين عنه لتتمكن  
من تلقئه، وطلقت تلوح بردائها، ثم غارت - لهول المباغلة - قواها، وغررت صمغة. أما  
العل فخرق وتفرق لشدة ما لقي من عصف الضرب.

كانت الفجاءة تعقد الألسنة حين استبان للقوم أخوهم يشتد عادياً كأنما هو عقاب تبوي  
من السماء، وكان يلقى أرضاً من يصل إليه عادياً من ورائه من أعدائه يمسكه أو بطرحه  
أو يقتله، وكأنه حين يزمع الفرار ظليماً، أو غير وحشي غليظ به، من معاركة الأثني خروج.

فينا شيوخ استبشروها بحبها  
فلما استفاقت فوجت الناس دونه  
وعزت تليلاً للدين ونعلها  
فما راعهم إلا أخوهم كأنه  
يخفص زعمان السعاة، كأنه  
نجاه كدور من خمير أبلدة  
على حين أن كل المرام تروم  
وناشت بأطراف الرداء لغوم  
من الضرب قطعاً القبال خديم  
بغادة فحاء الجناح لحوم  
، إذا ما تنحى للنجاء، ظليم  
بغائله والصمخاتين كدوم

أما في قصيدته الأخرى (الهاثية) فتحدث ساعدة الحديث المألوف عن رحلة الحبيبة، وشبه  
ظعنها بما شهبها به كثيرون سواه : بالسفن التي تحدها العواصف على أمواج البحار، وشبه  
الفتاة بظلية طليق في وادٍ وادع لا يتحصن سكية بالها حابل أو نابل، ووصف البرق الذي  
لمع - كعادة بروق الشعراء - من جهة وطن امرأته، كما وصف السحاب وما جاد به من غيث.

وبعد ذلك أقسم أن تباريح الجوى في جوفه ما هي بأخف من تباريح جوى شبيخة أم  
لاين ليس لها ذرية خلاه، وزفها إياه الله بعد أن أطبق عليها اليأس من أن تلد وهي عجوز

وبعلها شيخ لم يخلص قلة احتماله بها بكرها وبأبها وشبَّ حسن القوم، صحيح البنية، راحح العقل حيث أصبح فائد القوم وأميرهم، جريئاً مقدماً شجاعاً، لا يفتأ مصارعاً أعداء قومه، مشعر عن ساقيه، حائضاً القتال دوداً عن دمارهم.

انطلق مع ثلاثة من الغنم هذه المرة أيضاً فقطعوا أرضاً حلاءً، وبينا كانوا يسرون متتابعين نحو جبل صيف أرعى شجاع المؤذية، إذ أقبلوا أنفسهم وعصاة خندق به من كل صوب، فاستبق سبعا لك أنقش صمعه لحدته، وقوساً قوية لونه، وصقيل يسدد نحو صدورهم سانه الحادة التي لا يردُّها عنهم رادُّ، وبذلك تمكنه بقذوه غمأى منه فلما رأى القوم عرجي كاليدل السحيرة أو (أعرج على حاوية) اسفل من تحت صليل السيوف المشرعة وهوى قوئى حرم اعطى من شاطئ قمتكى من هوى أعدائه، ومات محبقة من أدهم.

وعلى نفس بحرى الأحداث في القصيدة السالفة، يطلق صاحبه ويؤمن أمه قله، وبغاليل أمامها الدموع فلا يهتفان حسها، بل نحس بها ما فيها بحاساً ولأن عدد أعدائه كبير، ولأنها رؤوسهم محيطين به من كل جانب، لم يث لقاؤه مصيره المحتوم حدث بل يقياً لا يمارحه شت، لذلك لم يكتبه بإبلاغها الس البقي الأسود، بل اسربا بقسمان بالله أن قد شتت شتوت، فتا بقسمهما آخر حيث لرحاء في يدها، فصفت - وقد همس عنها أوار اللوعة على فقهه وبقتها بدوه تحسث بعلها اللد سببها وتصرب به نفسها، رافعة عقيرتها بالموبل الذي يشق أجوار السماء، والذب والاستصرح الذي نردد أصدائه حواها

وفي دروة هلعها هذه البارله العاذقة، أهل عليها البشر بقوم أبها دون أن يذو عيه من صر، وقد فتت الأله الموضع كيدها، وأوهى بقايا قواها، فارغمت على الأرض مطرحة شرايم العل من يدها، وقد تورم إهابها الرقيق، وسنات عليه آثار الصرب والخراج :

وتالله ما إن شهلة أتم واحداً  
وألفه على يأمر، وقد شاب رأسها،  
فتب لها مثل النان مبراً  
عشاق غزو لا يزال مشمراً

بأوجد مني أن يهان صغيرها<sup>(٢٣)</sup>  
وحين تصدى للهوان عشيرها<sup>(٢٤)</sup>  
إمام لناذي دارها وأميرها<sup>(٢٥)</sup>  
برجلى إذا ما الحرب شت سعيها<sup>(٢٦)</sup>

\*\*\*\*\*

تَقْدَمُ يَوْمًا فِي ثَلَاثَةِ قُرْبَةِ  
فِيَاكُمْ يَتَابِعُونَ لِيَتَهَوَّا  
رَأَوْا مِنْ قَدَى الْكَفِّينِ قَدَامَ غَدْوَةٍ  
قَوْرُكُ لَيْسَ أَخْلَصَ الْقَرْنِ الْفَرَّةُ  
يُخْرِجُهُمْ عَنْ بَيْتِ مَنِيَّةِ

\*\*\*

فَلَمَّا رَأَوْهُمْ يَرْكَبُونَ صُلُورَهُمْ  
نَعْلَمُ مِنْ تَحْتِ الطَّيَّاتِ كَأَنَّهُ  
بَسَاقٍ إِذَا أَوَّلَ الْعَدِيِّ لِيَذْذُوا  
وَجَاءَ عَلَيْهِمْ إِلَها كَلَامُهَا  
يُيْلَانِ بِاللَّهِ الْحَمِيدِ لَقَدْ نَوَى  
فَقَامَتْ بِسَبِّ يَلْعَجُ الْجَلْدِ مَارِبِ

\*\*\*

فِيَا ثُلُوحَ اسْتَبْشِرُوهَا بِحَبْهَها  
فَخَرُثَ وَأَلْقَتْ كُلَّ نَغْلٍ شَرَامَا

بِحِرْدَاءِ نَصَبٍ لِلْفَوَازِي غُفُورَهَا (٢٧)  
بِقَذْفِ نِيَابٍ مُسْتَقْلٍ صُخُورَهَا (٢٨)  
عِطَاطًا بِهِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ حُضُورَهَا (٢٩)  
وَحَاشَكَةُ يَخْصِي الشَّمَالِ لَذِيرَهَا (٣٠)  
يُضَرُّ بِحَيَاتِ الْقُلُوبِ حَشُورَهَا (٣١)

كَذَلِكُنْ إِبَادِ يَوْمَ نُحُثِ صُلُورَهَا (٣٢)  
رِدَاءَةً إِذَا تَغْلُو الْخِيَارَ لُذُورَهَا (٣٣)  
يُخَفِّصُ رِيْعَانِ السَّعَاةِ غَوِيرَهَا (٣٤)  
يَلْعِضُ ذُمُوعًا لَا يَرِيثُ هُمُورَهَا (٣٥)  
لَدَى حَيْثُ لَا قِيَّ زَيْتَهَا وَتَصِيرَهَا (٣٦)  
وَعَزَّ عَلَيْهَا هُلْكُهَا وَغُورَهَا (٣٧)

صَحِيحًا، وَقَدْ فَتَّ الْعِظَامَ قُورَهَا (٣٨)  
بُلُوحَ بِصَاحِي الْجُلْدِ مِمَّا خَذُورَهَا (٣٩)

وإذا نظرنا في قصيدة حميد وجدناها مفتح بمقدمة قصيرة بنعرب فيها بنحمل حبيته. وهي لا تكاد تختلف عن مقدمة أبي صحر مما كان هذا الشاعر وهو يشبها شكوى منه وحرره على بحر حبس، ولا تسليه النفس والتسرية عنها باحترار توصافه ومحاسنه، بل كان همه تحريب رسم لوحة شاعرية فيه خدش مأساوي صريح، فيكفي من اسببها تأكيد وثاقه علافة الشاعر بنحمله، فهو بان ادب حداثتها سوى خفي ما أراد إلا ختمًا وعاف الدنيا.

ثم ينتقل مفتح (الجنح احسن) إلى عرصه (تشبيه ما يعاين من وحد بنحمله ما يعاينه عحور نكلت لها الوحيد) ثم يرحي الرمة لشعرته وعجبه مشروخ في (مشروخ) لوحته فليس يكفه عتب لها (شعفاء) فتمسك بكف دنت صاحب ساعده وأن صحر، فذهب بصف معانيها في درها لتحويل في الحياة، وذلك لإبراز مقدار بالغ انتقارها إلى الارشادي جاءها بعد كثرة، وإذا اجمع لافتقار مع عصفه لأوممة الشأحة ما يهول حرفة نفد. لقد قاست

مراراً العور، وقته دنت اليه، وأحرمان الخافى، فكانت نكد تودي صعباً وهراً، فاعة  
من الحية بقاء نفسها بدخل رثتها ويخرج منها

عاشت حياً من الدهر عساً، لم يطلب يده طالب، حتى رقت من أن تجد نُهْرَةً لبناء  
عشر أمري. لكن الله قبض لها بعد حين من ثرواتها، ثم حملت وولدت علماً في كعب  
أبوها ثمو الرجال، ومن من التربية خير من، فاكسب حصلاً كراماً كثيراً من عره نفس،  
وغلو همة، وقوة بدن، ونأي عن الدنياه، فصارت أمه محط أنظار أرحم الراحمين للعون والإعطاء.

حلفت برب الرقصات إلى منى  
لو أن لي الدنيا وما عدت به  
أنهجر جُضلاً أم لئلم على جمل  
رفيقاً ورب الواقفين على الجمل  
وجملٌ لغيري ما أردت سوى جمل  
وجملٌ غيروف الزيق جادمة الوصل

★★★★

فوجدني بجملي ووجد شمطاء عالجت  
من العيش أزماناً على مرر القل  
لما كنت معافاة بالرحر عيشة  
توى حسناً ألا تموت من الهزل

◆ ◆ ◆ ◆

قصي رثيها بطلاً لها فزوجت  
وعذت شهور الحمل حتى إذا انقضت  
لهف إليها الخلل واجمعت لها  
حليلاً، وما كانت تؤمل من نفل  
وجاءت بخرق لا دنيء ولا غل  
غير الغداة الطامحين إلى الفضل

حُلُّ بالقوم دافع ليس منهم، ولعله من قوم يهيم ويهيم مثاق، وطلب منهم تعبد ألقى  
مقاتل شاكي السلاح، وحثهم على حسن اختيارهم، وأن يكونوا من حرة القوم به، عسبياً،  
وغيرهم عناداً، فلبثوا يذكرون في الأمر مثلاً، ثم أتوا ما نصب واحتملوا من هذه المرأة  
قنبلاً لمجيش، فصنع يمارس مهمته، حائلاً بهذه دحلوله أمدته القيادة، ألا يتحولوا عنه في  
الزمني، ولا يتعدوا عن نصرته ثم ارتدى برؤ الفتن، وامتطي حواداً فارها صحباً مديد المش،  
وسار جده حاملاً لثو، فأسوا منه حنقاً رشيداً، وعللاً سديداً، وصعاباً كريمة ته عن  
نفس ميمونة كنفس الشاعر.

عصا التفت المعتدل حري ضرر كثير، وصعاب شديد، ضل الباب، ثم خلقت الهزيمة به وعين

معه من غير سبب يأتى منهم من جوف عن الماء، أو حل عن بصرة العند أو بصرة بعضهم بعضا فلما وثقوا الأديار، وأغيبهم تدنوا، لاضطراب بصرهم، خوفاً، دعاهم إلى ايهل والترث، ووعدهم بذب العدا عنهم، مؤكداً أنه خير من يدود عن لدمهم

إذا راكب تهوي به خربة  
فقال لهم: كيلوا بالقلى مفتع  
فشكروا طيقاً أصلهم ثم أسلموا  
وقال لهم: حملنوسى أنركم  
فلما أكتفى في بزة الحرب واستوى  
وساروا فأعطوه اللواء وجربوا  
فلما التقى الصناد كان تطارذ  
بهاً طويلاً ثم دارت هزيمة  
فقال لهم: واخيل مذبرة بهم  
على رسلكم ' إلى ساحي دماركم

غربت سواهم من أناس ومن شكل  
عظام طوال لا ضعايف ولا غزل  
بكف ابنها أمر الجماعة والقبيل  
فلا تركوني لاشترائك ولا خذل  
على ظهر شيخان القرا نيل غل<sup>(١٠)</sup>  
فماثل ميمون نقيته «اللى  
وطعن به أهواء مغطوبة لجل<sup>(١١)</sup>  
بأصحابه من غير ضعيف ولا خذل  
وأغيبهم مما يخافون كالقبيل<sup>(١٢)</sup>  
وهل بمع الأحاب إلا قلى مثلى ؟

وبما كان لا يفر له قرار، بذب عنهم أعداءهم من بين أيديهم ومن جمعهم، مقتصاً الثغرات في صف العدو رحالاً ومرساناً، شرراً عوراتهم ومواطن ضعفهم، هوى إليه رجل قد أشعل حب الانتقام في حشاه ناراً، قطع طعنة شق بها أضلاعهم، وأغدها إلى باص حوهم، فسقط عن جواده.

لكن ما كانت بالطعمة القاصية، وإن طبا حينه كذلك، فكروا بئيلهم ورحمهم عائدين إلى أهلهم يشون بأ مصرعه، ويدكرون محاسن ميثهم لدى الأبعد والأقربين معاً ولما دعوا المحي كانت أمه محتطية رحلتها، فتفتت سامعتها هذا البأ بيها كان غيرها من السوان في عملة من أمرهم وقع البأ عليها وقوع شهاب ثاقب، فما تمالكت قواها بل عشيها من اطلع العامر ما عشيها، حتى لقد فكرت في إرهاب روحها بمؤمنى على مقربة منها، لولا أن هول الصدمة، وقطعة الشعور بالشلل أربكها حسن الخط شيئاً ما، وعاقاها عن ذلك، ورب صارة بافعة وسرعان من أهل عيب البأ سائناً معاق وآلي الصحنه، موهور الفتوه، يكتمها تكليماً جلياً قوياً.

إن شدة تعقبي حمل، وعمق حبي هذا، وانتهاسي بها، لا يمن عن شدة تعلق تلك الأم  
بها وابتهاجها بسلامته، بل لمن وحدها به أدنى من وحدي بحمل<sup>١</sup>

فببناه يحميم ويعطف خلفهم	بصيرَ بعورات الصوارس والرُجل
هوى لائق خزان يعلم أنه	إذا ما توارى القوم منقطع أنبل
فلم يستطع من نفسه غير طعنة	سوى في صلوع الجوف نافذة الوغل
فخز وكثر حيله يندونهُ	ويتون خيراً في الأبعاد والأهل
فلما ذبوا للحمي أسمع هاتف	على غفلة السواد، وهي على رحل <sup>(١٣)</sup>
فقامت إلى موسى لتذبح نفسها	وأعجلها وثلث الرزية والثكل
لما برحت حتى أتاها كما بدا	وراجعها تكليم ذي لحظ جزل <sup>(١٤)</sup>
فوحدي يحمل ويخذ تيك، وفرحي	بجعل كما قد بانها فرحت قبلني <sup>(١٥)</sup>

وأخيراً لا بد من كلمة مقتضبة عن مصمون كل من قصيدي ساعدة وقصيدة حميد من  
حائب، وقصيدة أبي صحر من حائب آخر، وكذلك عن قصيدي ساعدة شكلاً ومصمونا

لا يعوث أحداً لمح قوة الشبه الشديدة بين الموضوعين عند الشعراء الثلاثة لا في وحدة  
الفكرة أو المصمون وحسب، فهذا شأن مفروق مه وليس مظهر اختلاف، بل في مهب ناول  
الفكرة، وبسط وحدتها وعناصرها، وتفصيل أجزائها، وخصائصها، وخاصة في مستهل القصائد حيث  
يتحور الشاعر تعابراً غير مثاق الحديث اللاهني عن الحبيبة ومرها الذي عفا واندرس حين  
مأت عنه، ماراً بدلت مرور (الحاملين) الذين يطرُقونه سيراً على التقيد والعرف الشعري، لا  
قصداً إليه عن طواعية واختيار. ويتحصن تحلصاً غير متدرج ليصل إلى العتبة التي هيء لها  
وكأنها هوسية، أي الحديث عن المرأة الصاعدة في السن وأنها الذي أتاها على حين مسيس  
حاجة إليه، مما كاد عيبها تقر عما آتاه الله من بسطة في الجسم، وسلامة من السقم، وما  
كادت تطعمه ضخم بعمه، حتى أتاها من ثم ترؤد سباً فنه في اعتراك مع أعداء. ثم الحديث  
عن شدة وقع هذا السب العظيم على الشيخة الكبيرة التي طعفت تدور حول القوم دون أن  
يقر لها قرار، تسأل عنه بإشفاق بالغ، وطبع في أن نسمع عنه خلاف ما طرق أدبها.

وما اختلف هو - كما أومأنا أعلاه - في الخاتمة التي أحصت المأساة عند ساعدة وحميد،  
وم تخرج عليها عند أبي صحر، ولعل هذا هو أهم فارق بين تناولهما للمحدث وتناوله له،  
ثم في المقدمة التي أحدث قصداً من قسطنطين النفاذي المؤلف في أحد نصفي ساعدة حيث

وصف صن حبيبة، وتغرّل، وشاء برق، وبعب مصر، وم تصغر انقدمه إلا بانيسر من ذلك  
في بصبه الآخر ولدى أنى صحر وخميد كما أن حتى حميد احتاره قومه رثيب، وقالداً لحشهم.  
فهو، إلى حاسب كونه وحيد أمه، ذو ميرة احتياعية وسياسية مهمة لدى قومه مما يريد فداحة  
شأن فقدته لدى الأم، ويختلف رد فعل الأم في قصيدة حميد عند بلوغ السأ سمعها، ويضع  
فيها فقدان الحبيبة على نفسها عابته محاولت قتل نفسها.

ولتقدم مساعدة وحيد على أنى صحر كما مضى الذكر . فليس أمام الباحث إلا قبول  
ما يوميء إليه صواهر الأمور، وتلعم صواضها عند ربي لا يعمها إلا هو، من أن أبا صحر  
ما اسوحى فكرة المأساة سيحاء ذاتياً، ولا هو اقتصر على التأثير (النعوي) بمصح بهاء عاصم  
لقصيدة لوصيفة هاء، بل ذهب بما كفي ديهت الشاعرين وربما صواهما ممن لم تصله قصائدهم  
أو عصا عها، كالحدث، مثلاً، عن نكل امرأة لسيها السالعين، أو عصفها مع دلوعها إلى  
الشيخوخة، ثم إحداها هذا الأس بعد بأس وتكرير ترويح، وشدة تعلقها به، وبجدة عمرها كريمة  
كثيرة، مما قوى هذا التعلق.

بل إنه ربما لا يحور من يذهب حتى إلى اتهام أنى صحر عفا الله عنه بانحلال بعض معاني  
مساعدة خاصة، وربما لا يشع للأول ما قد يكون حاله من أن قرأته للأخير، وإن شصت،  
كلاهما هنليان . ربما تحول له هذه الاستعانة الأدبية عند من لا يروها من (حسن الأحد)  
أو (محمود السرقه) الذين تحدث عنها القاد<sup>(٩٦)</sup>، ومن ذلك مثلاً قول مساعدة :

رائه على هؤن الشباب وأنها تراجف بغلا مرة وتوهم  
الذي ما عد، أو صحر أن صه في فاف لعضي آخر غير كثير الاختلاف .

وقد لبست حتى تولي شابها إذا مات بعل بُذلت بعده بهلا  
ولما جعل ساعده العجور يدرف الدموع، وتسري تصحاب بها الذين يحوه إليهم تسالهم عنه،  
وتلومهم عن تركه، وهو مشهد درامي أصيل راخر بالتعبير حي لصادق الذي يمسد أحدث  
تجسيداً بالغ الواقعية :

إذا أنرفت من عرة يمشئهم تسالهم عن حبا وتلوم  
لم يُجد أو صحر الإفاة من هذه الصورة الهينة المسعة فقع بأذى شبهها  
فقامت إليهم تجمع الكل والزخلا



وهي عبارة ظاهر لك معترف وعحرها على الدنو من سبها

على أن أسفوف أبي صحر لا يطاق ونسبوني حميد وسعدة أو أسلوب أحدهما حديث  
الغزل بالعل، وهذا شأن من دون شئ طبعي، إذ تعذر فتيدة أبي صحر مثلا بإصغاء  
عدة بعوت كبل على الأس من رجوع عقل، وسداد رأي، وجود، وحرارة، وحمل للصلاح  
وذلك من أجل تعظيم هو البأس في عقده كما استقلت فصدا من حويزة باحدث على  
العدم التي ابتدأت العتي بعصها وبأني بها أمه، وتحديد موقع الصراع بأنه صحرة شاهقة مرة،  
أو راحية من الحبل، ومقابلة العتي عدداً من القوم لا مباررة واحد وحسب، كما في قصيدة  
أبي صحر وتعذر فتيدة حميد شدة رد فعل الأم لما حسنت لها قد قتل علم تكفي بالتعبير  
عن حررها بصرب بعصها ولو بالعل، كما صنعت أمهات الأسماء في فصائد سعدة وأبي صحر،  
بل سعت للانتحار.

أما من حيث الشكل والمضمون في قصيدتي ساعدة، فمن الخلق أنه سالت في القصيدتين شيئاً واحداً ما كان يخرج عنها، فعاصر الحديث المفصلة وفكرة لا تكاد تختلف اختلافاً يذكر، وكأنه شاء من باب الاهتمام لأسلوب وحسب، إبراز مقدرة الشعيرة، إذ لم يكف جذاً في جوهر الحدث الأساوي ما يسوع التوجه إلى علاجه بمعنى آخر، كما أن قوة الله الصياغي بين هاتين القصيدتين القصيرتين بلغت حدّاً أو شكت أن تكون معه إحداهما ظلاً أو (صورة شبه الأصل) للأخرى. بل إن لمسائل أن يسأل عن مدى أصالتها، أو أن يفترض احتيالاً أصالة إحداهما دون الأخرى، ونولا اختلاف قافيهما ما كان إبعاداً لشجعة الذهاب إلى أيها قصيدة واحدة لعنت بها يد الدهر، أو أيدي يبه وعد هو الأرجح، واعتراها ما اعزى كثير من النصوص القديمة من تعديل على نسخة الترويض، وأخريف ونقص وزيادة سهواً أو عن عمد.

ولإبراز قدر ذلك التشابه الهندي بين العصيدتين، مما يلي سداد بعض أمور الاستحداثات التشابهية تشابها قويا في هذا الجانب فيما :

● القصيدة الميمية :

وما يحدث وخطي بها أم واحد على الأي خطأ القidal عقيم

● القصيدة الخالية .

وتالله ما إن شهلة أم واحد  
بأوجدني أن يهان صغيرها

● الميمية .

رأته على فؤت الشباب وأنها  
لراجع بقل مرة وصيم

● الخالية .

رأته على بأسر وقد شاب رأسها  
وحين تصدى للهوان عشيرها

● الميمية .

فشب لها مثل النان مبرأ  
أتم طوال الساعدين حسيم

● الخالية :

فشب لها مثل النان مبرأ  
إقام لاجي دارها وأميرها

● الميمية

فأصبح يوماً في ثلاثة قبية  
من الثفت كل حلّة وتديها

● الخالية .

تقدم يوماً في ثلاثة قبية  
بجزءاء نصب للفراري لغورها

● الميمية .

وقدم لي عطاء في شرفاتها  
نعالم منها قائم وهزم

● الخالية

فيهاهم يتأخرون لينتهوا  
بقذف باب منقل صخورها

● الميمية :  
فوزك لينا لا يكتنم نصله إذا صاب أرمأط العظام صمم

● الهائية :  
فوزك لينا أعلم القير أثره وحاشكة يعضى الشمال نديرها

● الميمية :  
وجاء خيلاه إليها كلامها يعضر ذموعا غزنهس سخوم

● الهائية :  
وجاء خيلاه إليها كلامها يعضر ذموعا لا يريث همورها

● الميمية :  
فقامت بسبت يلعج الجلد وقعة يقبض أحشاء القواد أليم

● الهائية :  
فقامت بسبت يلعج الجلد مارن وعز عليها هلكة وغورها

● الميمية :  
فينا ثوخ استبروها بحها عل حين أن كل المزام لروم

● الهائية :  
فينا ثوخ استبروها بحها صحيحاً وقد فت العظام فورها

● الميمية :  
وعزث تايلا ليديس ونغلها من الصرب قطعاً القبال خديم

● الهائية :  
فحزث وألفث كل نغل شرافما يلوخ صاحي الجلد مها خذورها



أما البنية فوصف للظن، وغزل، ووصف قلات، وفتح الشاعر غدا، ووصف ليلته، وفخر بما زعم أنه أوتيته من سحابة كريمة.

كما نكت ثلثا بدعيا في قصيدة له أخرى مطلعها :

وقلت على زئج لبنة نافسي فما زلت أبكي عهده وأحاطيه

ذات حجة وسنين بيتاً (انظر القصود لنفسه ٨٢١/٢-٨٥٨) في وقوفه على منزل مبة حبيته، ووصفه له، ثم حديثه عن رحلته مع أخاه وما عاينه من جراء تلك الرحلة من وجد وجوى. ثم وصف الأمل، ونسبه، ووصف مقاماته في جوب القلقات، ووصف جملة، وحاراً وحشياً، ويوماً شديد الحر لم يرعه عن السور، والخراب، والجناب التي تتناثر من شدة حر الرضاه، وناقته، والفخر بخصاله الكريمة، ووصف طريقاً موحشاً ووصف اليوم وروعي لحلم أفضل صابحه، ووروده الليل، وماء الليل، والوقوف ... وبعد هذه الرحلة القوية الطويلة الغنية بما لذ للشاعر وحاطب من الخراف، التي جالس خلالها بالعديد من الموضوعات ضمنياً أربعة وسنين بيتاً من القصيدة وجد الشاعر في بيت ييم ما يمكن للشدح ذلك الموضوع الذي لا يقله نفسه ولا تسله إلا كرهاً، هو قوله :

تؤم فنى من آل مروان أطقت يداه وطابت في قسوتها عذاره ١١

وفي قصيدة أخرى قصوة نسباً (٢٢١ بيتاً) أوطأ :

عفا الزؤف من أطلال مبة فالأخل فأنجذاف خوحي حيث راحها الخبل

قلنا مدحاً فقام من عبد الملك لم يسكن من قول غير بيت واحد فقط أيضاً هو :

إلى ابن أبي العاصي هذاب نعلت بنا العين من حيث الظن الغلاف والإمل

(انظر القصود لنفسه ١٦٠٩/٢-١٦٦١).

وفي قصيدة أخرى له كان غرضها الفجاء لم يك تسله من أياها تسعين سوى قراءة ريعها، وهي التي نوها :

دنا الجين من مئى فزوت حالها فهاج الغوى فلوهمها واحمالها

انظر القصود لنفسه ١٩٩٨/١-٥٥٨).

ولغو من ذلك نصيب الفجاء في قصيدته :

ألا بما السلمي ي دار مئى على السلى ولا زال مقللاً بجوعك القطر

(نفسه ٥٥٩/١-٥٩٨).

(٣) الشرب : - بالتحريك - جمع الشرية وهي حويص يقام حول البعثة ويبدأ ماء فارتوى منه. (والغلا مثلاً اللسان والشرب).

(٤) أفلت : أفلت المرأة فلاساً فهي مفلتة ومفلات إلا لم يبق لها ولد وأفلت المرأة إذا حلت ولدها. قال الشاعر :

فلت القطر أكثرها فرعاً ولما القطر مفلات فسزوز

انظر القصود نفسه (٣ ل ت).

(٥) الإغى : الشلل الضعيف الساقط القصير في الأشاء ... وهو أيضاً الغمي نسباً ليس منه. والشيء الغام. انظر القصود نفسه (و ع ل).

- (٩٦) النكَل : النعام.
- (٩٧) نُطَلَتْ : نُطِلَتْ طَوَلًا.
- (٩٨) مُبَد : مُبَد من الرجال العام بالأمور الذي ليس بغير النساء (ع و د).
- (٩٩) مَوْرَة : دُعَاهُ وَجْهَهُ. يَمْنِي الضَّرَب. التَعَالَى : جَمْع مَبْتَلَةٍ وَهِيَ تَعَلُّ طَوِيل عَرِيض. نُطِلَتْ : حُوِّلَتْ.
- (١٠٠) نُطِلَتْ قَطْلًا : نُطِلَتْ قَطْلًا.
- (١٠١) السُّفَار : الْعَادَةُ الْعَهْدَاء : الْقَرَس دَات الْوَد الْأَصْهَب وَالْأَيْضُ الْمَرْجُوح بِمَعْرِف.
- (١٠٢) نَسْمُوا : عَاتُوا إِلَى حَيْثُ كَانُوا.
- (١٠٣) نَسْمُجُ الْفُكْل وَالْإِخْل : قَوْل : هُوَ الْكَوْء ١ وَزُجْلَاهُ.
- (١٠٤) نَظَرُ الْقَصِيدَةِ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ الْفُضْلَيْنِ، مَسْعَاةُ أَبِي سَعِيدِ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّكْرِيِّ، تَحْقِيقُ عَبْدِ السَّامِرِ فَرَّاحٍ، وَمَكْتَبَةُ دَارِ الثَّوْرِيَّةِ، الْقَاهِرَةِ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥، ١/٢، ٩٥٩-٩٦١.
- (١٠٥) سَرًّا : أَيْ مِنْ الْعَمَلِ وَالْأَعْوَاد.
- (١٠٦) السَّيْفَانُ : السَّيْفَانِ. يَمْنِي قَارَةً (وَجِلًا) الْعَام : جَمْع لَمَامَةٍ وَالْفَرْعُ مَعْنَاهَا مَسْرَاةُ فِي الشَّجَرِ. عَزِيم : مَتَعَتُهُمْ مُتَكَبِّر.
- (١٠٧) حَسَاب : عَدَدُ كَتَب. يَرْب : يَهْلَعُ. يَسُوم : يَسْرَح.
- (١٠٨) وَرَدَ كَيْلًا : أَمَلُ سَبَأٌ كَيْلًا لِلضَّرَب. يَكْتُمُ : الْكُتْمَةُ : التَّعَتُّدُ. وَهِيَ تَرَدُّ أَيْ لَا تُرَدُّ ضَرْبُهُ.
- (١٠٩) تَرَدُّ : الْآثَرُ : الْقَرْدُ. وَهُوَ الْوُشْيُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى مَتْنِ شَيْءٍ : جَمْعُ شَيْءٍ وَهِيَ دَوْبَةٌ مِنَ الْعَاكِبَةِ. فَجَمْعُ : دَوْبَةٌ.
- (١١٠) صَفَرَاء : نَوَسَ. يَهْلَعُهَا : صَوَّبَهَا. مَرْقُوعَةً : رِيحٌ شَدِيدَةٌ تَرْفُوعُ الْأَشْيَاءِ وَتَرْكُهَا يَهْلَعُ.
- (١١١) أَشْجَعَةُ نَفَرِ الطَّلَات : أَيْ صَارَتْ السَّهَامُ دَاتِ الْفَضْلِ الْعَرِيضَةِ كَالْبَصِصِ لَمْ تَكُنْ أَدَى الْعَدُوِّ عَنْهُ لَا تَعْمَهُمْ مِنْ الدَّوِّ مَدَّ الْخَطِّ : الْكَلَامَةُ وَهِيَ كَيْسٌ مِنْ جِلْدِ لَوْحٍ فِيهِ السَّهَامُ. جَمْعُ : نَارٌ مَوْقُودَةٌ. يَشْبُهُ هَذِهِ السَّهَامُ فِي عَدِيدِهَا وَتَوَقُّعِهَا بِالْأَثَرِ الْعَلِيِّ دَاتِ الْخِصْرِ الْفَرْجِ حَيْثُ لَا تَوَارَى السَّهَامُ فِي كِتَابَتِهَا فَيَبْدُو تَأْكُلُهَا. قَامَتْ : دَمٌ جَدَفَ. دَمِي : مَعْلَى. مَرْقُوعٌ سَجُومٌ : الْقَرَبُ : الدَّوْلُ الْكَبِيرُ. سَجُومٌ : كَتَبُ السَّيْلَانِ. يَغْمُرُهَا بِهِ : ضَالُّوَاهُ وَضَالٌّ. يَقُولُ كَاتِبُهُمْ ضَالُّوَاهُ فَرَعًا خَلِمَ : مَقُولٌ. يَنْتِ : سَمٌّ مِنْ جِلْدِ الْفَرَسِ. يَنْتُجُ : يَخْرُفُ. أَرْقَتْ : أَفْجَتْ.
- (١١٢) دِيَوَانُ الْفُضْلَيْنِ، الْقِسْمُ الْأَوَّلُ، وَمَسْعَاةُ دَارِ الْكُتُبِ الْقَاهِرَةِ، الْقَاهِرَةِ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٥، ص ٢٢٧ - ٢٣٥، وَشَرْحُ أَسْمَاءِ الْفُضْلَيْنِ ١/٣-١٦٦، ٦٩، جِزْيَتَا : الْجِزْبُ - بِكسر الخاء - الْخَيْبَةُ، فَطَمَتِ النَّاسَ : أَرْقَتْ بَيْنَهُمْ يَدْعَاهُ، نَاشَتْ : نَبَاتَتْ. نَوْمٌ : كَاتِبًا نَوْمٌ فِي مِثْلِهَا فَرَحًا. تَلَّى : صَرَّحَ. فَطَمَتِ الْبَقَالَ : قَدْ انْقَطَعَ جَانِبُهَا. وَهُوَ السِّرُّ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الْأَصْبَحِينَ فِي الْعَمَلِ. خَلِمَ : مَقْطُوعَةٌ أَوْ مَسْرُوقَةٌ. خَالِدٌ : اسْمٌ مَوْضِعٌ. فَطَمَتِ الْخَيْبَةَ : كَاتِبَةً عَنْ الْعَقَابِ. فَطَمَتِ أَمْرًا فِي الْقَرَسِ ١

كَأَنِّي بِفَتْحِهِمُ الْخَضَائِعِ بِفَتْحِهِمُ عَشِيرَتِهِ مِنَ الظُّلُمَانِ طَائِفَاتُ جَبَلَالٍ

وَالْفَتْحُ : إِنْ فِي الْخَضَائِعِ : لُحُومٌ : أَمْكُورٌ لِلنَّعْمِ، وَكُلُّ عَذَابٍ حَوْثٍ وَإِنَّمَا وَصَفَهَا بِهِ فِي هَذَا الْقَامِ لِتَأْكِيدِ سَرْعَةِ قُوَّتِهَا ضَمًّا فِي النِّعَمِ. يَخْطُرُ : يَطْرُقُ وَرَدَهُ. وَزَعَانُ السُّعَاةُ : أَوْجُهٌ شَتَّى : الْغُرَفُ الْعَلَوِيَّةُ، وَوَعْتُهُمْ بِالسُّعَاةِ أَيْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَهُمْ بِمَقَاتِلَتِهِمْ وَاجْتِنَابِ الْكُفْرِ : الْعَبْثُ مِنْ خَيْرِ الْوَحْشِ. أَبْدَا : مَوْضِعٌ. فَالْبَقَالَةُ : عَرَفَ مِنْ دُونِهَا مِنْ قُوَّتِهِ حَتَّى أَشْبَهَ السَّالِفَ. الصَّفَحَاتُ : صَفَحَاتُ الْعَمَلِ. كَلَّوْمٌ : مَقْطُوعٌ. يَوْصَفُ حَارَ الْوَحْشِ بِأَنَّهُ كَثِيرُ الْمَقْطُوعِ وَذَلِكَ لِأَمْرِهِ الْأَثَرِ وَغَضَبِهَا لَهُ.

ياث لثري دثرها ترثها  
لا لثري شهلة صيرها

الشك (ش ه لث) وجاء فيه : والشهلة الصنف العالقة، وذلك اسم لها خاصة لا يوصف به الرجل، وامرأة شهلة كهنة.

(٢٤) على بأمر : أي على بأمر من أن تله. تصدق للهوان عشوها : تصدق زوجها فواليا لأنها كوت فهاث عليه.  
(٢٥) مبرا : سبقت في ح ٩٥.

(٢٦) جاش غنم : معاني غنم. يقال : (انقشتم) : إذا هو عانقه.

(٢٧) شغب : أي شغب عوبه. القوازي : القواذ.

(٢٨) بامعون : بامعون، بقذاف، والقذاف : ناعية الجبل. نياف : نائف، ميف، طويل.

(٢٩) من فدى الكفن : من قدر الكفن.

(٣٠) وزك شيا : انظر ح ١٨ أملاء. آرة : انظر ح ١٩ أملاء. حاشكة : قوس خشك يفرها إذا رمى عنها أسرع سهبا. يفضي الشمال : يؤثر في اليد اليسرى وزها : يقال : (خضني يفضي حشا) : والذير : الإثر.

(٣١) يرحهم : يعد الأعداء عد. سينا : مسنونة عذوق خنورها : حديد.

(٣٢) يكون صدورهم : يقعون عليها. ثمت خورها : ثمت وأسيك دملها.

(٣٣) شمر : نما وأثنت الطأت : جمع القطعة وهي حد السيف. زعلا : صخره شبه بها في علوه. الثور : الثور : أهل الجبل، الخمار : الأرض الرخوة فيها خمر وجحر.

(٣٤) القيد : العاقون أو العداك يفضي زبناك السعاة : انظر ح ٢٦ أملاء. القور : القنور، وأصله من العار.

(٣٥) لا يرب : لا يعطي. خنورها : ما هم منها وسال.

(٣٦) ويلان : يخلدان. أبل يما إذا حلف. زتها ونصوها : يتيان زتها.

(٣٧) يفتح : يرق. مارن : لئن. خورها : يذلا.

(٣٨) استبروها : يثروها.

(٣٩) ديوان الغدلين، القسم الثاني، (مطبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، ص ٢١٤-٢١٨. والقصيدا كاملة ص ٢١١-٢١٨، ومطلعا :

أصاحك من عو الحبيب يكرزها  
أشدت بلي لم يفرج ليوها

وشرح شعار الغدلين ١١٧٧-١١٨١. خنورها : الخنور جمع حنر وهو التزم.

(٤٠) اكسى : استمر، أي ما ليس آلة الحرب. شبحان : طويل، يقصد فرسا طويلا الظهر. نيل خسيم، طيفا : فلما.

(٤١) ألوه مطوقة : أي ألوه مطوقة، أي هو مستبعدة، وهي أشد عطران وهي التي تذهب بنة وبسرة، ونسى الخلوحة أيضا.

(٤٢) الفل : ح كلاء وأفل، صدقان من الفل، وهو إبل سواء العين على الأنف، وفل : هو مثل المنزل، وفل فيه عو ذلك، وإها كانوا كذلك لشدة الفزع حين دارت الدائرة عليهم.

- (١٣) حائف : المؤلف : من يسبح صوته ولا يرى شخصه، أجمع : أجمع لغوءه يريد فطنت عبده وهي على رحلتها.
- (١٤) ذو حُظٍّ : الحُظُّ ج الحُظُّ. حُسنةٌ يُدلُّ على جهازه صوته. جزل : قوي شديد.
- (١٥) القصيدة في ديوانه، ص ص ١٦٣-١٦٦.
- (١٦) مثل أبي حلال السكري في الصائعين ص ٢١٧، والمظفر بن الفضل العلوي في نضرة الإفرنج في نضرة القريض، ص ٢٠٣ وما بعده.

## ● المصادر ●

- ديوان الخليلين، القسم الأول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ-١٩٤٤م، والقسم الثاني والمطبعة نفسها، القاهرة، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.
- ديوان حميد بن ثور الخليلي، صنعة عبد العزيز النسي، (مطبعة دار الكتب)، القاهرة، ١٣٧١هـ-١٩٥١م.
- ديوان ذي الرمة (مشرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي)، تحقيق عبد القدوس أبو صباغ، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق،
- القسم الأول : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
- والثاني : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م
- والثالث : ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م
- شرح أشعار الخليلين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق عبد الستار فراج، القسم الثاني، ومكة دار الروبة، القاهرة، ١٣٨١هـ - ١٩٦٥م.
- كتاب الصائعين لأبي حلال السكري، تحقيق مفيد قبيصة، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- لسان العرب، مادة (ش ر ب) و (ش ل ن) و (و غ ل) و (ع و) و (ه و) و (ش ه ل).
- نضرة الإفرنج في نضرة القريض، المظفر بن الفضل العلوي، تحقيق أبي عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

## ● المبرهنات ●

- (١) إن تفسر معظم الكلمات العربية التي لم يبين مصدرها مأخوذاً بتصرف أحياناً عن شرح أشعار الخليلين، إذا كانت في قصائد ساعدة وأبي حنيفة، وعن ديوان حميد بن ثور الخليلي، إذا كانت في قصيدته.
- (٢) نقل أبو حاتم السجستاني صنعة نسبة قصيدة حميد له (ينظر الديوان ص ١٦٣)، لكن التمهني أثبت أنها لما بناه على رواية ابن دريد، ولذلك اعتمدناها هناك وليس يعني نسبتها إليها له قطعاً بدلت تلك النسبة.

